

فُتِبْتُ<sup>(١)</sup> حميداً ولم تلقَ ذاماً  
 ءِ فاعتضتَ في الخلدِ عيشاً دواماً  
 فقد كنتَ في كلِّ فنٍّ إماماً  
 والناسُ بعدك إلا سواماً  
 يَزِدُّدَنَّ بعدك إلا انعجاماً<sup>(٢)</sup>  
 مَ إذا ازدحمتَ في الصُّدُورِ ازدحاماً  
 إذا اضطربتَ أبخُرُ العلمِ عاماً  
 وقدماً تقدّمتَ فيها غلاماً

وَضَنَّ بِكَ الدهرُ عن أهله  
 وأيقنتَ أنَّ الدُّنَا للنفنا  
 لتَبِكَ عليك فنونُ العلوم  
 وما كنتَ إلا قريعَ الزمان  
 ألا لا أرى مشكلاتِ الأمور  
 فَمَنْ ذا يُفَرِّجُ عَنَّا الهمو  
 وَمَنْ للمجالسِ صدرٌ سِوَاكَ  
 وَمَنْ للمحاريبِ أهلٌ سِوَاكَ  
 وقال أيضاً<sup>(٣)</sup>:

وكلُّ سنينك ثلاثون عاماً  
 لك عاجلٌ فيه السَّرارُ<sup>(٥)</sup> التماماً  
 تَ يُصْبِحُ للذُّودِ يوماً طعاماً  
 كما قد لقيتَ ألقى<sup>(٦)</sup> حماماً  
 ترى الخلقَ في حافتيه قياماً  
 على القُربِ والبُعدِ أهدي السَّلاماً

تجاوزتَ في العلم حدَّ الشيوخ  
 ولم [أر] <sup>(٤)</sup> كالـيومِ بدرأ سوا  
 فحاشا لساناً تلا ما تلو  
 وهوونٌ وجدي أني غداً  
 وأن سوفَ يجمعنا موقفٌ  
 عليك السلامُ فإني امرؤٌ

### السنة التاسعة والستون وأربع مئة

فيها في صفر غلب على المدينة محيط العلوي، وأعاد خطبة المصريين، وطردها منها الحسين مهنا أميرها، فقصده خراسان إلى ملكشاه ونظام الملك، وكان قد أساء السيرة، ووضع على الواردين لزيارة قبر النبي ﷺ أتاوة، فقامت الشناعة، واجتمعت القبائل مع محيط بهذا السبب.

(١) في (ب): فُمْتُ وفي المنتظم: فُئِلْتُ.

(٢) في المنتظم: انقحاما.

(٣) هذه العبارة من الأصل (خ)، وكأنها مقحمة؛ لأن ما بعدها هو تنمة للقصيدة، وهي ليست في المنتظم.

(٤) ما بين حاصرتين من المنتظم.

(٥) السَّرار: آخر ليلة في الشهر. المعجم الوسيط (سرر).

(٦) في المنتظم: مُلاق.

وفي ربيع الأول تُوفِّي رئيس العراقيين أبو أحمد بن عبد الواحد بن الخضر النهاوندي على باب ملكشاه بأصبهان.

وفيه سار ملكشاه إلى خوزستان، ودخل البصرة، فأقام يوماً واحداً لمشاهدة المدِّ والجزر.

وفي ربيع الآخر تزوج الأمير قراقر بن كاكويه الديلمي أرسلان خاتون عمه السلطان وزوجة [الخليفة]<sup>(١)</sup> القائم، وحمل إليها مئتي ثوب أصنافاً وعشرة آلاف دينار. ودخل بها.

وفيه ورد كتاب أئسز الخوارزمي تاريخه سلخ صفر [من أول الجفار] بأنه قد سار إلى مصر.

وفيه زادت دجلة زيادةً عظيمةً، فثقلَ تابوت القائم من الدار إلى الرصافة في الليل خوفاً عليه من الماء، ولم يعلم به أحد.

وفيه سار أرتق [بك] التركماني واسمه ساراكسك، فقطع حلوان إلى القطيف، ومرَّ على البصرة، فنهب أصحابه ما مروا به، فأغلقت أسواقها، وسدَّت أبواب دروبها، وعَدِم الناس الماء ثلاثة أيام، وخرج إليه أعيان أهلها وقَبَّحوا عليه ما فعل، فطلب منهم الجمال والروايا والزاد والمال ليذهب إلى الأحساء، فأعطوه بعض ما طلب، وسار منها في رجب إلى القطيف، فوجد يحيى بن العباس الخفاجي صاحبها قد أخلاها ومضى إلى جزيرة أوال، ونجم أرتق إلى الأحساء فنهبها، وكان بقلعتها جماعةً من القرامطة، فراسلوه وخدعوه، وقالوا: نحن نُعطيك عشرة آلاف دينار ونُخطبُ للخليفة والسلطان. فأجابهم، فقالوا: ابعُد عنَّا مدةً قريبةً ليتراجع الناس، ونجمع المال. وأعطوه رهائن، فرحل عنهم، فخرجوا إلى آبار غامضة في بساتينهم مملوءة طعاماً، فنقلوها إلى البلد، وعلم أرتق أنهم خدعوه، فعاد إليهم، وقتل من الرهائن عدَّةً، واحتبس منهم<sup>(٢)</sup> من رأى عنده رأياً، وأخرب السواد، ونُهبت القرى، وامتلات أيدي مَنْ معه من النهب، وقاسوا من شدة الحرِّ ما حملهم على طلب نفورهم، وكان هناك

(١) ما بين حاصرتين في هذا الموضع والموضعين الآتين من (ب).

(٢) في (ب): عندهم.

رجل - يقال له : عبد الله بن علي الغنوي - عدواً للقرامطة ، فأخذ أرتق ولده معه رهينة ، ورثب معه مئتي فارس من التركمان ، وأقام على حصار الأحساء ، وكان للغنوي في تلك الأرض حصن يُعرفُ بالمحصنة ، وهو من بناء أبي البهلول المتغلب على جزيرة أوال ، والحصن قريب من الجرعاء ، وقلَّت الغلال بها ، ولا يعرف أهلها القوت إلا من التمر والسّمك ، ويُطعمون بهائمهم ذلك ، والحنطة متعذّرة عندهم ، فاشتدَّ الغلاء ، وبلغ الرطل السمك الجرعاني مئتي درهم رصاصاً ، ومعاملتهم بالرصاص ، يبلغ الدينار إلى ثمانية عشر ألف درهم وإلى عشرين ألفاً بدينار ، وعاد باقي التركمان إلى البلاد .

وفي رجب أغار خطليج أدران<sup>(١)</sup> على بني خفاجة ، كانوا على واد السباك بالحجاز ، ومعهم غزنة وزبيد ، فخرج خطليج من الكوفة وصحبه جماعة من التركمان طمعاً في النهب ، فقال لهم : [المال لكم ، والنساء لي ، لا تتعرضوا للحريم . فقالوا]<sup>(٢)</sup> : نعم ، وساروا في البرية ثلاثة أيام ، فصبّحهم وقت السحر ، ودقَّ الطبول ، وضربت البوقات ، فركبوا خيولهم وانهمزوا ، وجاء هو إلى الحلل ، فأسبل أثواب البيوت ، وحمى من فيها من النساء وما عندهن من الأموال ، ونهب التركمان الجمال والغنم ، ولم يُمكن أحداً من رفع سجاجف عن امرأة ، وكان عدد الجمال خمسة آلاف جمل ، وأما الغنم فلا تُحصى ، غير أنها لم تتبعهم ؛ لضعفها ، ورجع بطلب الكوفة ، فرأى مع أصحابه من الإماء ثلاثاً ، فأنكر عليهنّ ، فقالوا : هؤلاء سألننا أن نأخذهنّ لنخلصهنّ من خدمة<sup>(٣)</sup> العرب ، فقلن : نعم ، فقال : لا ، وردّوهن إلى العرب .

وفي رجب عاد أئسز الخوارزمي إلى دمشق منهزماً من القاهرة في خمسة عشر فارساً ، وقد نهبت أمواله ، وقُتلت رجاله ، وكان لما تسلّم دمشق تصوّر في عزمه قصد مصر ، فجمع من التركمان والأكراد والعرب عشرين ألفاً ، ووصل إلى الريف ، وأقام نيّفاً وخمسين يوماً يجمع الأموال ، ويسبي الحريم ، ويذبح الأطفال ، وهو يرأسل بدران الجمالي ، ويطلب المال ، وقد انزعج الناس ، وكان عسكري مصر بالصعيد [يحارب

(١) كلمة : أدران ، ليست في (ب).

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

(٣) في (ب) : من أيدي.

العبيد، فضمن له مئة وخمسين ألف دينار، واستدعى من كان بالصعيد<sup>(١)</sup> من العساكر والسودان، وكان مع أئسز بدر بن حازم الكلبي في ألفي فارس، فاستماله بدر، فانتقل إلى القاهرة، وورد القاهرة ثلاثة آلاف رجل في المراكب بنيت الحج، فقال لهم بدر: دَفَعُ هذا العدو أفضل من الحج. وأعطاهم المال والسلاح، وقالوا لوالد شكلي التركماني الهارب من أئسز: كاتب التركمان. فكاتبهم، وأفسد منهم نحواً من سبع مئة غلام، وكانوا كارهين لأئسز من شحّه وعسفه، واتفقوا أن الحرب متى قامت استأمنوا إلى بدر، وسار أئسز إلى القاهرة في أواخر جمادى الآخرة، فأرسل بدر ألفي فارس يصدمونه حتى يستأمن من أفسدهم أبو شكلي، فلم يستأمن أحداً، وكسرهم أئسز، فرجعوا مفلولين إلى القاهرة، وكان قد التجأ إليها أهل الضياع والأصقاع ومصر والتجار، فوقفوا على باب القصر باكين صارخين، فخرج من [عند]<sup>(٢)</sup> المستنصر خادماً فقال: يقول لكم أمير المؤمنين: إنما أنا واحد منكم، وعوض ما تتضرعون على بابي وتبكون، فارجعوا إلى الله تعالى وتضرّعوا له، ولازموا المساجد والجوامع، وصوموا، وصلّوا، وأزيلوا الخمر والمنكرات، فلعلّ الله أن يرحمني وإياكم، ويكشف عتاً ما قد نزل بنا. فعاد الناس إلى المساجد [من الجوامع، وخرج النساء كاشفات الوجوه، مشورات الشعور]<sup>(٣)</sup> يبكين ويستغثن، والرجال يقرؤون القرآن، وكان بدر الجمالي قد هياً المراكب والسفن؛ إن رأى غلبة نزل منها الإسكندرية، وكذا صاحب مصر، فضجّ الناس، وقصدوا باب القصر، وقالوا: تمضي أنت وبدر في السفن ونهلك نحن؟! فخرج الجواب: إني معكم مقيم، فإن مضى أمير الجيوش إلى حيث يطلب السلامة فها هنا من السفن ما يعثكم، مع أنني واثق من الله بالنصر، وعندنا في الكتب السالفة أن هذه الأرض لا تؤتى من الشرق، ومن قصدتها هلك، فلما كان وقت السحر خرج بدر إلى ظاهر القاهرة والعسكر معه، وأقبل أئسز في جحافله، والدياب والبوقات بين يديه، فرأى بدر ما لم يظن له به طاقة، وكان بدر قد أقام بدر

(١) ما بين حاصرتين من (ب).

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) ما بين حاصرتين من (ب).

ابن خازم من وراء أثنيز كميناً في ألفي فارس، فخرج من ورائهم، فأخذ البغال المحملة، وضرب النار في الخيم والخركاوات، واستأمن إلى والد شكلي السبع مئة غلام كانوا في الميسرة، وحمل بدرٌ على الميمنة فهزمها، وحمل السودان على القلب وفيه أثنيز، فانهزم وقُتِلَ مَنْ كان حوله، وتبعهم السودان والعرب أسراً وقتلاً إلى الرمل، وغنموا منهم غنائم لم يغنمها أحدٌ قبل ذلك، وكان فيما أخذ ثلاثة آلاف حصان وعشرة آلاف صبي وجارية، وأما من الأموال والثياب فما لا يُحصى، وأقاموا مدة شهر رجب يحوزون الأموال والخيول والأمتعة والأسارى، وجاء العسكر وأهل البلد إلى باب القصر، فضجوا بالأدعية، فخرج إليهم جواب المستنصر: قد علمتم ما أشرف عليكم من الأمر العظيم والخطب الجسيم الذي لم يخطر في نفوسنا القدرة على دفعه وردّه، حتى كشفه الله تعالى، وما يجب أن يكون في مقابله إلا الشكر لله تعالى على نعمته، ومتى وُجد إنسانٌ على فاحشة كان دمه وماله في مقابلة ذلك، ثم وُجد بعد ذلك ستة سكارى، فأخذوا وخنقوا، وزال<sup>(١)</sup> ما كان بمصر من الفساد، ولازموا الصلوات وقراءة القرآن، ومضى أثنيز في نفر يسير، فلما وصل غزّة ثار أهلها به، وقتلوا جماعة ممن كان معه، فهرب إلى [الرملة، فخرج إليه أهلها، فقاتلوه وقتلوا من كان معه، فهرب إلى]<sup>(٢)</sup> دمشق في بضع عشرة نفساً، فخرج إليه ولده ومسمار أحد أمراء الكلبيين، وكان قد استخلفهما بدمشق في مئتي فارس من العرب، وكان وصوله في عاشر رجب، فنزل بظاهرها في مضاربٍ ضربها له مسمار، وخرج إليه أهل البلد فخدموه، وهنّوه بالسلامة، وشكّوه، فشكرهم، وأطلق لهم خراج تلك السنة، وأحسن إليهم، ووعدهم بالجميل، فقام واحدٌ منهم فقال: أيها الملك العادل - وبه كان يُخاطب ويُخطبُ له - قد حلفت لنا وما حلفنا لك، وتوثقت منّا، وأنا والله أصدقك وأنصحك. فقال: قل. قال: قد عرفت أنه لم يبق في هذه البلدة عشرُ العشرِ من الجوع والفاقة والفقر والضعف، ولم يبق لنا قوة، ومتى غلقت أبواب هذا البلد من عدو قصده، ورُمّت منا منعةٌ أو حفظاً، فإن كنت مقيماً بيننا فنحن بين يديك مجتهدون، ولك

(١) في (خ): وذلك، والمثبت من (ب).

(٢) ما بين حاصرتين من (ب).

ناصحون، وإن بَعُدَتْ عنا فلا طاقة لنا بالقتال مع الفقراء والضعفاء، فلا تجعل غلبة العدو سبباً لهلاكنا ومؤاخذتنا. فقال: صدقتَ ونصحتَ، وما أبعدُ عنكم، ولا أُخليكم من عسكر يكون عندهم. ثم أقام بدمشق، جاءه التركمان من الروم، ولم يستخدم غيرهم، وعصى عليه الشام، وأعادوا خطبة صاحب مصر في جميع الشام، وقام بذلك المصامدة والسودان، وكان أُنسز وأصحابه قد تركوا أموالهم [بالقدس، فوثب القاضي والشهود ومن بالقدس على أموالهم] ونسأهم فنهبوا، وقسموا التريكات بينهم، واستعبدوا الأحرار من الأولاد واسترققوهم، فخرج من دمشق فيمن ضوى إليه من التركمان، ووصل إلى قريب القدس، وراسلهم وبذل لهم الأمان، فأجابوه بالقبيح، وتوَعَدوه بالقتال، فجاء بنفسه إلى تحت السور، فخاطبهم وسبَّوه، فقاتلهم يوماً وليلةً، وكان ماله وحرمه في برج داود، ورام السودان والمصامدة الوصول إليهم فلم يقدروا، وكان في البرج نفق<sup>(١)</sup> إلى ظاهر البلد، فخرج أهله منه إليه، ودلَّوه عليه، فدخل منه ومعه جماعة من العسكر، وخرجوا من المحراب، وفتحوا الباب، ودخل العسكر فقتلوا ثلاثة آلاف إنسان، واحتفى قومٌ بالصخرة والجامع، فقرَّر عليهم الأموال، حيث لم يقتلهم لأجل المكان، وأخذ من الأموال شيئاً لا يبلغه الحصر، بحيث يبعث الفضة بدمشق كلُّ خمسين درهماً بدينار مما كان يساوي ثلاثة عشر درهماً بدينار، وقُتِلَ القاضي والشهودُ صبراً بين يديه، وقرَّر أمور البلد، وسار إلى الرملة، فلم يرَ فيها من أهلها أحداً إلى غزة، وقتل كلَّ من فيها، فلم يدعُ بها عيناً تطرف، وجاء إلى العريش فأقام فيه، وبعث سريةً فنهبت الريفَ وعادت، ثم مضى إلى يافا فحصرها، وكان بها رزين<sup>(٢)</sup> الدولة، فهرب هو ومن كان فيها إلى صور، فهدم أُنسز صورها<sup>(٣)</sup>، وجاء كتابه إلى بغداد بأنه على نية العود<sup>(٤)</sup> إلى مصر، وأنه يجمع العساكر، ثم عاد إلى دمشق، ولم يبقَ بها من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمس مئة ألف أفناهم الفقر والغلاء والجلاء، وكان بها مثنان وأربعون خبازاً، فصار بها خبازان، والأسواق خالية، والدار

(١) في (ب): رتق.

(٢) تحرفت في (خ) إلى: وزير، والمثبت من (ب).

(٣) هكذا في (خ) و(ب)، ولعلها: سورها.

(٤) في (خ): العهد، والمثبت من (ب).

التي كانت تساوي [ثلاثة آلاف دينار يُنادى عليها عشرة دنانير، فلا يشتريها أحد، والدكان الذي كان يساوي]<sup>(١)</sup> ألف دينار ما تُشترى بدينار، كان الضعفاء يأتون إلى الدار الجليلة ذات الأثمان الثقيلة فيُضرمون فيها النار فتحترق، ويجعلون أخشابها فحماً يصطلون به، وأُكلت الكلابُ والسنانير، وكان الناس يقفون في الأزقة الضيقة فيأخذون المجتازين فيذبحونهم ويشوونهم ويأكلونهم، وكان لامرأة داران قد أُعطيت قديماً في كلِّ دار ثلاث مئة دينار أو أربع مئة دينار، ولمَّا ارتفعت الشدة عن الناس ظهر الفأر، فاحتاجت إلى سنَّور، فباعته إحدى الدارين بأربعة عشر قيراطاً، واشترت بها سنَّوراً.

وفي شوال وقعت فتنة بين الشافعية<sup>(٢)</sup> والحنابلة، وسببها أنه ورد إنسان يُعرف بأبي نصر بن عبد الكريم القشيري النيسابوري الواعظ المتكلم على مذهب الأشعري، فجلس في المدرسة النظامية، وخلط وعظَّ بالكلام، وذمَّ الحنابلة، وتكلم في القرآن، فأنكرت الحنابلة ذلك، وعنَّ لأبي إسحاق الشيرازي إمام الشافعية وأصحابه معونته على الحنابلة، وتتبع بعضهم بعضاً في الطرقات ضرباً وسباً، فالشافعية لقلة عددهم اعتضدوا بنظام الملك، وأما الحنابلة فمع كثرة عددهم تقوَّوا بسواد البلد، وكان في يوم مجلس ابن القشيري يحضر قومٌ من اليهود والنصارى، ويرغبون فيما يعطون فيُسلمون، ويُخلع عليهم، ويُحملون على الخيل ويُطاف بهم، فتقول العوام: هذا إسلام المغاظة والرِّشا، لا إسلام الدين والتقى. وزاد الأمر فيما بينهم، وجلس جماعة، وكتب أبو إسحاق إلى نظام الملك يشكو أمر الحنابلة ويستدعي منه المعونة، وبعث جماعةً بكتب، وكان أبو جعفر عبد الخالق بن أبي موسى الهاشمي مُتقدِّم الحنابلة مقيماً بالرُّصافة، فبان له من شحنة بغداد، ويُعرف بالسلار القاروني، تعصَّب عليه خدمة لنظام الملك، وبلغه أنَّ ابن القشيري على عزم قصد جامع الرُّصافة يوم الجمعة ومعه الشحنة، فخاف، وجاء إلى دار الخليفة شاكياً، وأقام بباب المراتب أياماً، ثم مضى إلى مسجده بباب التُّوبي، فأقام به على عادته، وحُبل إليه يهوديٌّ

(١) مابين حاصرتين من (ب).

(٢) في المنتظم ١٦/١٨١-١٨٣ - والخبر فيه - بنحو مختصراً - : الأشعرية.

فأسلم، وخرجوا معه، وقصدوا باب الثوبي، وعزموا على الهجوم على ابن أبي موسى [في] (١) مسجده، ورتب ابنُ أبي موسى أصحابه على سطح المسجد وبابه وجوانبه، فلما وصلوا رماهم الحنابلة بالأجر من سطح المسجد، فقتلَ واحدٌ من الشافعية خياطٌ من سوق الثلاثاء، وخرج آخرون، ووقع في صاحب الباب أجراً، وانهمز الشافعية، وغلقوا أبواب النظامية، ونهبت عمائم الناس، وصاحت الشافعية على باب الثوبي: المستنصر يا منصور؛ تهمةً للمقتدي أنه يميل إلى الحنابلة، وأدخلَ ابنُ أبي موسى إلى دار الخليفة، وأسكنَ في موضع؛ حراسةً له، وحجراً عليه، وكفأً للفتنة، وغضب أبو إسحاق الشيرازي وجمع أصحابه، وعزمَ على الخروج من البلد، فبعث الخليفة مَنْ رده، وأحضر ابنَ القشيري وأبا سعد الصوفي وأبا إسحاق وابنَ أبي موسى إلى الديوان، وأصلحت الحال، ووقع التراضي بأنَّ ابن القشيري يجلس بجامع القصر مجلسين أو ثلاثاً، فلما كان يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي القعدة جلس بالجامع، وبعث الخليفة جماعةً من الرجاله بالسلاح يحفظونه من العوام، فشرع في الوعظ، وخلط بكلام الأشعري، فقام رجل أعمى وقف بإزائه وانتزع آيات من القرآن، مثل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ [القلم: ٤٢] ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٢٧] وما أشبه ذلك، فشكى ابنُ القشيري إلى ابن جَهير، فحبس الأعمى، والفتن قائمة، ووردت رُسُلُ أبي إسحاق الشيرازي في المُحرَّم سنة سبعين ومعهم كتابان إلى فخر الدولة ابن جَهير وابنه عميد الدولة أبي منصور، فمضمون كتاب فخر الدولة: كتابي أطالَ الله بقاء سيِّدنا الوزير الأجلِّ السيد مؤيد الدين فخر الدولة شرف الوزراء، أدامَ الله رفعتَه وتمكينَه وبسطتَه، وذكر ما جرت به العادة من الدعاء، وقال: بلغنا ما تجدد ببغداد من القضايا المتعلقة بالدين التي تظهر في أثنائها على الصُدفة، واعتقادُ المداهنين يُشعر بأن الضمائر المنطوية على النفاق أبت إلا ما تُكِنُّه، والسرائر المعقودة على الخِلاف والغُلِّ لم تصبر على استحفاظ ما تُجِنُّه، حتى ورد إثر ذلك عدةٌ من الفقهاء ونفرٌ من العلماء، فأوضحوا ما يجري هناك مما كانت تخفي حقيقته وجليلته، وما ظهرت بذلك صورته، ولعمري إن هذه الطائفة - يعني

(١) مابين حاصرتين من (ب) والمتنظم.

الشافعية - إذا قَلَّتْ غواتهم ولم يجدوا فيما دَهَمَهُمْ مَنْ ينصرهم ويُظافرهم، ولم يُقْمُ معهم فيما حَزَبَهُمْ ويؤازرهم، وإن كانوا لم يزالوا مُقَدِّمِينَ مُمَيِّزِينَ مُكْرَمِينَ فلم يُصْبِحُوا أغراضاً لِسَهَامِ النَوَائِبِ يطعن فيهم كلُّ مخالفٍ ومُجانِبٍ، لا يرضى لهم حُرْمَةً، ولا يرقُبُ فيهم إلاّ ولا ذِمَّةً، غير اعتقاد المذهب الذي هم به موسومون، ومن علومه يتعلمون، وقد بنينا لهم مدرسةً تصير مأواهم، ويتخذونها في السراء والضراء مثواهم، وإن هؤلاء الذين ينتحلون مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله - وإن كان هو بريئاً من سوء دَخَلِهِمْ وأفعالهم، منتفياً من ذمهم طرائقهم وأقوالهم، مع كثرة عددهم في تلك البقعة واشتداد شوكتهم، واتفاق أقاويلهم في الضلال وكلمتهم - لم يتجاسروا في زمن الأزمة على ما جعلوه الآن بينهم سورةً يتدارسونها، وصنعةً يمارسونها، مِنْ سَبِّ الأئمة، والوقية في علماء الأئمة، من غير منع ولا معاقبة، ولا تخوُّفٍ ولا مراقبة، والعجب من إقدامهم في تلك البقعة الحرجة على أهل السنة، وإلقاءهم إياهم في كلِّ محنة، وعندنا بخراسان وبلاد الترك - مع تباعد أقطارها واتساع أكوارها - لا يُعرف فيها سوى مذهب الإمامين الشافعي وأبي حنيفة، ومن سُمِعَتْ منه كلمةٌ عوراء في سائر كُورِها تُخالِفُ المذهبين وتُباينُ اجتماعَ الفريقين نرى دمَه حلالاً، ونُوسِعُهُ ضرباً وإذلالاً، وليس الإغضاء عمّا يبدو منهم من البدع، ويُضاف إليهم من شرِّ مجتمع، إلاّ ترفقاً أن يجري في جوار الخِلافة المُعظَمةِ وسُدَّةِ<sup>(١)</sup> الإمامة المكرمة ما يُخلُّ بلوازم الهيبة، ويفلُّ جوانب التعظيم والرَّهبة<sup>(٢)</sup>، وأما ما يخصُّني أنا في ذلك البلد فما أجدُّ أضلَّح من حسم القول فيما يتعلق بتلك المدرسة؛ لئلاّ يجري على من يتقياً ظلَّ عنايتي، ويلحظُ بعين رعايتي ما يجري، وذكر كلاماً طويلاً ممزوجاً بتهديد، وكذا كتاب عميد الدولة.

وحكى أبو الفتح الحلواني - وكان قد حضر هذه القضية - أن الخليفة لما خاف من تشنيع الشافعية عليه عند نظام الملك أمر الوزير أن يُجِيلَ الفكر فيما يحسم به الفتنة، فاستدعى ابن جردة، وأمره بإحضار الشريف أبي جعفر وأبي إسحاق الشيرازي وابن القشيري وأبي سعد الصوفي على وجه التلطف، فأحضرهم، فعظَّم الوزيرُ أبا جعفر ابن أبي موسى ورفعَه،

(١) في (خ): الخليفة العظمة وشدة.

(٢) في (خ): الوفية.

وقال: إن أمير المؤمنين قد ساء ما جرى، وهؤلاء يصلحونك على ما تريد، وأمرهم بالدنو من الشريف، فقام أبو إسحاق الشيرازي إليه - وكان يتردد إلى مسجده أيام المناظرة بدرب البطيخ - فقال له: أنا الذي تعرف، وهذه كتيبي في أصول الفقه أقول فيها خلافاً للأشعرية. ثم قَبِلَ رأسه، فقال له الشريف: قد كان ما تقول، إلا أنك لما كنت فقيراً لم يظهر لنا منك ما في نفسك، فلما جاء الأعوان والسلطان وخوفاً بزرک أهديت ما كان مخفياً. ثم قام أبو سعد الصوفي وقَبِلَ يدَ الشريف وتلَطَّفَ به، فالتفت الشريف إليه وقال: أيها الشيخ، أمَّا الفقهاء فإذا تكلموا في الأصول فلهم في مسائلها مدخل، أمَّا أنت فصاحب لهو وسماع وتغيير، فمن زاحمك على ذلك حتى أقمّت الفتن وسوق التعصّب؟! .

وقام ابن القشيري - وكان أقلهم احتراماً للشريف لجروانه معه - فقال الشريف: من هذا؟ فقبل: أبو نصر بن القشيري. فقال: لو جاز أن يُشكرَ أحدٌ على بدعته لكان هذا الشاب؛ لأنه بادّهنّا بما في نفسه، لم يناقنا كما فعل هذان. ثم التفت إلى الوزير، وقال: أيُّ صلح بيننا؟ إنما يكون الصلح بين خصمين على ولاية أو دين أو قسمة لميراث، أو تنازع في ملك، فأما هؤلاء القوم فيزعمون أننا كفار، ونحن نعتقد أنّ من لا [يعتقد ما] <sup>(١)</sup> نعتقدُ فهو كافر، وهذا الإمام مفرغٌ للمسلمين، وقد كان جدُّه القادر وأبوه القائم أخرجوا اعتقاداً للناس، وقرئ عليهم في دواوينهم، وحمله عنهما الخراسانيون والحجيج إلى أطراف خراسان، ونحن على اعتقادهما. وأنهى الوزير إلى الخليفة ما جرى، فخرج الجواب: عُرِفَ ما أنهيته من حضور ابن العم - كثر الله في الأولياء مثله - وحضور من حضر من أهل العلم - والحمد لله - على جمع الكلمة، وضمّ الألفه، فليؤدّن للجماعة في الانصراف، وليقلّ الشريف أنه قد أُذِنَ له موضع قريب من الخدمة ليراجع في كثير من الأمور الدينية، وليتبرك بمكانه، فلمّا سمع الشريف هذا قال: أفعلتموها؟ فحُمِلَ إلى موضع أُفردَ له، فكان الناس <sup>(٢)</sup> يدخلون عليه مدّة، فقبل له: قد كثر استطراق الناس لدار الخلافة، فاقصر على من يُعين دخوله. فقال: مالي غرض في دخول أحد عليّ. فامتنع الناس عنه، ثم مرض مرضاً أثر في رجليه فانتفختا، فيقال: إن بعض المتفكّهة من الأعداء ترك له في مدهسه سماً، وسنذكره إن شاء الله تعالى.

(١) ما بين حاصرتين من ذيل طبقات الحنابلة ١٥/١ .

(٢) من هنا يبدأ السقط من الأصل (ب) وينتهي بنهاية السنة (٤٧٣) هـ .

وخرج ابن القشيري إلى الحج، وسكنت الفتنة، وكتب ابن أبي الصقر إلى نظام الملك يقول: [من مجزوء الرمل]

يا نظامَ المُلكِ قد حُلَّ ببغدادَ النَّظامُ  
عَظَمَ الخَطْبُ ولِلدَّ حَربٌ<sup>(١)</sup> اتَّصَلَ ودوامُ  
وابنُكَ القاطِنُ فيها مَسْتَهانٌ مُسْتَضامُ  
وبها أودى له قَتْلُ لَأَغْلَامٍ وغَلَامُ  
والذي منهم تَبَقى سَالمًا فيهِ سَهاُمُ  
يا قِوامَ الدِّينِ لِمَ يَبُ قَ ببغدادَ مَقامُ<sup>(٢)</sup>  
فمَتى لِمَ تَحسِمِ الدا ءَ بِكُفِّكَ الحِسامُ  
ويكفُّ القومَ في بَغْ دا دَ فَتْكَ وانْتِقامُ  
فعلَى مَدْرَسَةِ فيِ ها ومن فيها السَّلامُ

ولمَّا وقف نظام الملك على الرُّقعة حنق على ابن جَهير، وقد كان النظام يعلم ميل الخليفة إلى الحنابلة وبُغضه للأشاعرة، ولكنَّه كان يستأثر الأمور، لا يمكنه أن يصرِّح بذلك، وكان في الباطن يُحرِّض ملك شاه على الخليفة الوزير.

وفيها أزال الخليفة المواخير، ونفى المفسدات وكانت مغلَّة الشحنة، فأعطاه من عنده ألف دينار.

وفي ذي القعدة خرج أبو طالب بن أبي تمام الزينبي إلى مكة لأخذ البيعة للخليفة والسلطان، وخرج معه خطلج أدراز أمير الكوفة، وكان ذلك مخالسةً، وما علم به من أصحابه إلا رجلاً أو ثلاثة، فتبعوه، وحجَّ وعاد مع الزينبي، وخلعا على أمير مكة.

وفي ذي القعدة بعث سابق بن محمود بن الرُّوقلية صاحبُ حلب إلى أنطاكية بأحمد شاه والترکمان الذين معه وعدد كثير من بني كلاب وأحداث حلب، فحصرها، فبلغ الخبزُ بها رطلين بدينار، وقرَّروا عليه مئة وخمسين ألف دينار، وقبضوها وعادوا عنها.

(١) في الأصل (خ): عظم الحرب والخطب، والتصويب من الكامل ١٠٩/١٠، وتاريخ الإسلام ٣١١/١٠، وغيرهما.

(٢) في الأصل (خ): قوام، والمثبت من المصادر السابقة.

وفيهما تُوفِّي

اسْبَهُدُوسْتِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ<sup>(١)</sup>

أبو منصور، الديلمي، الشاعر، كان يهجو الصحابة رضي الله عنهم والناس، ثم تاب وحسنت توبته، فقال: [من الكامل]

لاخ الهدى فجلا عن الأبصار  
ورأت سبيل الرشد عيني بعدما  
لابد فاعلم للفتى من توبة  
يمحوبها ما قد مضى من ذنبه  
وعلمت أنهم هداة قادة  
وعدلت عما كنت معتقداً له  
السيّد الصديق والعدل الرضا  
وعليّ الطهر المفضل بعدهم  
صحب النبي الغر بل خلفاؤه  
رحماء بينهم فتلك صفاتهم  
وتراهم من راعين وسجّد  
أيقنت حقاً أن من والاهم  
فعدلت نحوهم مقرراً بالولا  
مترجياً عفو الإله ومحوّه  
وإذا سألت عن اعتقادي قلت ما  
وأقول خير الناس بعد محمد  
ثمّ الثلاثة بعده خير الورى  
هذا اعتقادي والذي أرجو به  
وكانت وفاته في ربيع، ودُفن بباب أبرز.

(١) المنتظم ١٦/١٨٤-١٨٥.

حمزة [بن علي] <sup>(١)</sup>

أبو يعلى بن العين زربي، الشاعر، كان فصيحاً فاضلاً أديباً، لما فتح أثنسز بن أوق القدس وقتل بها ذاك العالم العظيم كان حمزة بالقدس، فقتل بالحرم في شوال رحمه الله، ومن شعره: [من السريع]

يا راكباً يقطعُ عرضَ الفلا      بلِّغْ أحبَّائي الذي تسمعُ  
وقُلْ لهم ما جفَّ لي مَدْمَعُ      ولا هنا لي بعدكُم مضجَعُ  
ولا لقيتُ الطَّيفَ مُذْ غبْتُمُ      وإنَّما يلقاهُ مَنْ يهجعُ

وقال: [من الطويل]

تناسيتُمُ عهدَ الهوى بعدَ تذكاري      فأجرى حديثي عندكُم دمعِي الجاري  
وأنكرتُمُ بعدَ اعترافِ موَدَّتِي      فهَيَّجْتُمُ وجدِي وأضرمْتُمُ ناري  
وهلْ دامَ في الأيامِ وَضِلُّ لهاجرِ      ووُدُّ لِحَوَّانٍ وعهدُ لِغَدَّارِ  
أما حاكمٌ لي في هواكُم يُقيلني      أما أخذُ لي بعدَ سفكِ دمي ثاري  
وإنِّي لصَبَّارٌ على ما ينوبني      ولكن على هجرانكُم غيرُ صَبَّارِ

طاهر بن أحمد بن بابشاذ <sup>(٢)</sup>

أبو الحسن، النَّحْوِي، المصري، صاحب المقدمة المشهورة، كان عالماً فاضلاً، وله تصانيف في النحو، وسمع الحديث ورواه، وقُرئ عليه الأدب بجامع مصر سنين، صعد يوماً إلى سطح جامع مصر فوقع فمات من ساعته في رجب.

## السنة السبعون وأربع مئة

فيها في ثالث المُحرَّم قتل السلطانُ جلالُ الدولة ملك شاه أنموه بن أتابك صاحب الجيش، وكان قد عصى عليه.

(١) تاريخ دمشق ٢١٢/١٥-٢١٣، ومعجم الأدباء ١١/٥-٨، وما بين حاصرتين من المصادر.

(٢) معجم الأدباء ١٢/١٧-١٩. وتنظر باقي مصادر الترجمة في السير ١٨/٤٣٩.